الحبيب

زيد بن حارثة

رضي الله عنه

عندما يحب الرسول ﷺ أحدا..

« ماذا تقولين يا امرأة ؟».

في انهيار واضح صرخ بها حارثة لامرأته سعدى والتي أجابته وهي تجهش بالبكاء:

- لا أعرف كيف حدث هذا؟! لقد هجمت علينا قبيلة مجاورة لقبيلة أهلي، وفى لمح البصر لم أجد زيدا بين يدي..جن جنوني..بحثت عنه في كل مكان دون جدوى.

ودون أن يستمر حارثة في الحوار، أخذ عصاه وحمل عليها زاده ، وخرج يبحث عن زيد في كل مكان ، لم يترك قبيلة إلا بحث فيها ولا قافلة إلا سألها.

ومع مرور الوقت.. بدأ حارثة يفقد الأمل، ولم يجد وسيلة إلا أن يكتب شعرا في ولده تتناقله الألسنة، لعل أبيات الشعر تنجح فيما فشل فيه هو..

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل ... أحي فنرجو؟ أم أتى دونه الأجل

فوالله ما أدري، وإني لسائل ... أغالك بعدي السهل أم غالك الجبل؟

أما زيد.. فقد استقر به المقام في سوق عكاظ، حيث تتم عملية بيع وشراء الرقيق، وكان الطفل زيد من نصيب حكيم بن حزام..

وكانت خديجة بنت خويلد عمة حكيم بن حزام.. والتي كانت زوجة للرسول ﷺ في هذا الوقت..

ولقد قرر حكيم بن حزام قرارا أدخل به زيدا التاريخ من أوسع أبوابه..

لقد قرر أن يهدي زيدا لعمته خديجة..

لقد أصبح زيد بن حارثة في بيت النبوة..

بيت رسول الله ﷺ.. حامل رسالة الإسلام إلى العالمين..

كان طبيعيا أن تهب السيدة خديجة زيدا إلى زوجها رسول الله ﷺ، ليتلقى زيد أولى هدايا رسول الله ﷺ إليه..

العتق..

فلقد أعتق رسول الله ﷺ زيدا بمجرد تسلمه من خديجة، وبعدها شعر زيد أنه لم يفقد والديه أبدا، فلقد أحبه الرسول ﷺ كما أحب أبناءه، وأحبه زيد كما أحب أبويه..

بل أكثر مما أحب أبويه..

بمرور الأيام.. شعر زيد أن حنان الرسول ﷺ له هو حنان أب صادق يحب ابنه، ويخشى عليه ويحسن تربيته ورعايته..

وبمرور الوقت.. أصبحت حاجة زيد إلى أبويه الحقيقيين تقل شيئا فشيئا، حتى إنه عندما وصلته أخبارهما، لم يشعر أنه بحاجة إلى أن يترك الرسول ﷺ ويعود إليهما، رغم أنه حر طليق..

فرغم مرور السنين..لم تتوقف محاولات حارثة في البحث عن ابنه زيد، فكان يرسل عددا من الرجال في كل موسم حج في مكة، للوصول إلى أخبار من الممكن أن ترشده إلى ولده..

وفى أحد المواسم..نجح رجال حارثة في الوصول إلى زيد شخصيا..

عندها.. ظن الرجال أن مجرد معرفة زيد بأنهم من طرف أبويه، سيكون كفيلا بأن يطير فرحا، ويفكر بعدها في طريقة للعودة إلى أحضانهما..

وأخذ الرجال يحكون له عن لوعة وشوق والديه له، ومحاولات أبيه المضنية في الوصول إليه طيلة الفترة السابقة.

إلا أن رد فعل زيد أذهلهم ..

لقد اكتفى زيد بأنه يبلغهم السلام وقال لهم وهو يبتسم:

- أخبروا أبي أني هنا مع أكرم والد.

وما إن عرف حارثة تفاصيل اللقاء، حتى أعد العدة، فجهز الأموال الوفيرة وتوجه إلى مكة هو وأخوه، وما إن وصل، حتى سأل عن بيت محمد ﷺ، حيث ولده زيد..

كان طبيعيا أن لا يجد عناء في البحث عن محمد ﷺ..ولا بيت محمد ﷺ..

لقد اقترب حارثة جدا من الوصول إلى حلمه باستعادة ابنه. الأموال موجودة والرجل معروف بسيرته الطيبة وأصله الكريم..

وتوجه حارثة وأخوه إلى بيت الرسول ﷺ، وكلهما بشر وتفاؤل ربما يصل إلى حد اليقين، بأن ما هي إلا ساعات ويكون زيد في أحضان أبيه..

إلا أن المقابلة المنتظرة، حملت مفاجأة غير متوقعة..

مفاجأة كبيرة..

ومذهلة!!

* * *

جلس حارثة وأخوه في بيت الرسول ﷺ، وقد تهللت أساريرهما وارتسمت عليهما ابتسامة عريضة من حسن استقبال الرسول ﷺ لهما، وما إن استقر بهما المجلس، حتى بدأ حارثة يجمع كلماته ويرتبها قبل أن يتوجه للرسول ﷺ ويقول مبتسما في رفق:

- يا بن عبد المطلب يا بن سيد قومه، أنتم أهل حرم، تفكون العاني، وتطعمون الأسير.. جئناك في ولدنا، فامنن علينا وأحسن في فدائه.

لم يكن الرسول ﷺ يحتاج إلى هذا الكلام المنمق لكى يعيد زيدا إلى أبيه وهو يعلم يقينا حقهما الكامل في ذلك..ولم يكن الرسول ﷺ لتشغله قيمة المبلغ الذي سيدفع في زيد ثمنا لفدائه..

إنما كانت تشغل الرسول ﷺ قضية أخرى بعيدة تماما عن هذا وذاك ..

قضية عدل ورحمة واحترام وتقدير لإنسان.. اسمه زيد..

كان الذي يشغل ذهن الرسول ﷺ، هو سعادة زيد وراحته واستقراره..كان الذي يشغل ذهن الرسول ﷺ، هو حرية زيد في اتخاذ قرار مصيري في حياته..

وجاء عرض الرسول ﷺ الذي أرضى الجميع دون نقاش..

نظر الرسول ﷺ إلى أبي زيد وعمه نظرة حانية وهو يقول:

«ادعوا زيدا، وخيروه، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء.. وإن اختارني، فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني فداء».

كان عرض الرسول ﷺ أكثر مما توقع حارثة بكثير.. وهو ما جعله يهتف متهللا:

– لقد أنصفتنا، وزدتنا عن النصف.

وبسرعة.. أرسل الرسول ﷺ في طلب زيد.. وعندما حضر زيد، قال له الرسول ﷺ برفق وهو يشير إلى أبيه وعمه:

«هل تعرف هؤلاء؟».

قال زيد وهو يشير إليهما:

– نعم.. هذا أبي.. وهذا عمي.

وعندها طرح الرسول ﷺ الأمر على زيد بعد أن أبلغه ما دار بينهم من حوار..

هنا نظر زيد إلى الرسول ﷺ وقد تألقت عيناه وقال في حزم:

– «ما أنا بالذي يختار عليك أحدا.. أنت الأب والعم».

نظر حارثة وأخوه كل منهما إلى الآخر في ذهول ، وتملكتهما مشاعر الغضب والغيظ من ابنهما الذي اختار غير أهله ، واندفع أبوه قائلا في حدة:

– و يحك..أتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وأهلك ؟

وبينما أجابت عينا زيد في حزم، كانت الدموع تترقرق في عيني الرسول ﷺ مما قال زيد..

وهنا أخذ الرسول ﷺ زيدا من يده وخرج إلى فناء الكعبة، وفي جمع كبير من الناس صاح الرسول ﷺ بأعلى صوته قائلا:

«اشهدوا أن زيدا ابني.. يرثني وأرثه».

لقد حسمت القضية.. واختار زيد الرسول ﷺ..

أما حارثة وأخوه، فلم يجدا بدا من الاستسلام للأمر، وترك زيد ومجافاته.

والآن.. أصبح زيد ابنا لأب عادل حنون يشهد له الجميع..

لقد أصبح زيد من الآن..

زيد بن محمد.

وبعد قليل.. سيصبح ابنا لنبي آخر الزمان ﷺ..

ليصبح..

زيد بن محمد رسول الله ﷺ.

* * *

كان بلوغ الرسول ﷺ سن الأربعين، يعني بداية تكليفه برسالة الإسلام..

وكان يعني بداية بحث الرسول ﷺ عن أشخاص يتوسم فيهم قبول فكرته واستعدادهم لحملها معه..

بدأ الرسول ﷺ يفكر فيمن يعرفهم من أصدقائه وأقربائه من النابهين المميزين..

إن قبول فكرة الإسلام لم يكن يحتاج أكثر من قلوب متفتحة ونفوس صافية وشخصيات تتمتع بالحرية أو تتوق إلى نسيم الحرية..

لم يكن يحتاج الإسلام خصوصا في بدايته إلا إلى شخصيات قوية تملك حرية الفكر والقدرة على اتخاذ القرار والدفاع عنه مهما يكن الثمن..

ولقد ربى الرسول ﷺ زيدا على كل هذه المعاني..

فكان طبيعيا أن يفكر فيه الرسول ﷺ بسرعة.. ويقبل زيد الإسلام بسرعة..

ليصبح ثاني من آمنوا بمحمد ﷺ..

ومن ذلك التاريخ.. وزيد يحمل عناء الرسالة مع حبيبه وأبيه محمد ﷺ..

فبعد عشر سنوات من البعثة، صاحب زيد الرسول ﷺ في رحلته إلى الطائف وعاشها معه لحظة لحظة، بكل مرارتها وألمها وخطورتها.

لقد كانت تربية الرسول الكريم ﷺ له تربية تؤهله لحمل رسالة كرسالة الإسلام..

كان زيد قصيرا غير جميل الشكل.

إن الآباء لا يحبون لأولادهم أن يكونوا هكذا..وبعضهم يشعر أن شكل الإنسان جزء من مستقبله ووضعه في المجتمع..

ولكن كان الرسول ﷺ بفطرته السليمة، يعلم أن جوهر الإنسان أبقى ألف مرة من ملامح سيغيرها الزمان يوما بعد يوم، ثم يمحوها تماما حين يأتي الأجل..

لقد ربى الرسول ﷺ زيدا تربية أهلته لأن يصبح يوما قائدا قادرا على السيطرة على الآلاف من الجنود الأكثر منه طولا والأفضل منه شكلا..

لقد اعتمد الرسول ﷺ على زيد في عدد من المرات كقائد عسكري..

ليس لأنه ابنه أو أنه كان يوما ابنه بعد أن حرم الإسلام التبني.. ولكن لأنه كان أهلا لذلك لا شك..

حتى إن السيدة عائشة رضي الله عنها تقول:

«ما بعث الرسول ﷺ زيدا في جيش قط إلا أمره عليهم، ولو بقي حيا بعد رسول الله لاستخلفه».

فبعد ما أصاب المسلمين في غزوة أحد، بدأ الرسول ﷺ يقوم بسرايا بين الحين والآخر للهجوم على قوافل قريش كحرب استنزاف، تضعف معنوياتهم وترفع معنويات المسلمين...

وفي جمادى الآخرة في السنة الثالثة للهجرة، وصلت أخبار للرسول ﷺ عن طريق سليط بن النعمان بأن قافلة لقريش ستمر عبر طريق العراق ، فأصدر الرسول ﷺ أوامره بتجهيز سرية قوامها مائة راكب بقيادة زيد بن حارثة للهجوم على القافلة، وفي سرعة كبيرة وصلت السرية للقافلة وهجمت عليها هجمة مباغتة وهي في أرض نجد، فاستولى عليها كلها وأسر قائدها «فرات بن حيان»، وعادت سرية زيد بن حارثة وهي تحمل غنائم كبيرة من الأواني والفضة قدرت بالآلاف، وكانت فاجعة قريش في هذه السرية كبيرة.

لقد اختار الرسول ﷺ الابن القائد زيدا للقيادة العسكرية..

وعندما حان وقت الزواج، اختار الرسول ﷺ الأب والإنسان لزيد ابنة عمته زينب لتكون زوجة له..

وعندما عرض الرسول ﷺ الأمر على زينب رفضت الأمر، فما كانت تقاليد العرب في ذلك الوقت أن تسمح بزواج بنات العائلات من عبد حتى وإن أعتق .. وقالت: لا أتزوج أبدا، وأنا سيدة عبد شمس.

ولقد أراد الرسول ﷺ أن يكسر هذه القاعدة ليقرب الفوارق بين طبقات المجتمع ويرفع من شأن حبيبه زيد، فحاول مرارا وتكرارا إقناع زينب.. فقال لها النبي محمد ﷺ:

«بل فأنكحيه، فإني قد رضيته لك».

وقبل أن تجيب زينب النبي ﷺ ..

نزل قول الله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

رأت زينب بعدها بأن قبولها الزواج أصبح أمرا من الله تعالى فقبلت الزواج نزولا على أمر الله عز وجل ورغبة الرسول ﷺ..

وتم الزواج...

إلا أن الخلافات شقت طريقها بقوة بين الزوجين..

وتعددت الخلافات، وتعدد تدخل الرسول ﷺ لإصلاح الأمر.. لكن زينب لم ينشرح قلبها لزيد رضي الله عنه لحكمة يعلمها الله عز وجل- فألم زيد رضي الله عنه ذلك واشتكى إلى رسول الله ﷺ أكثر من مرة، وكان النبي محمد ﷺ دائما يردد عليه: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ [الأحزاب:٣٧].

ويأتيه مرة أخرى ليشتكي منها ويطلب الطلاق والتفريق والنبي ﷺ يردد عليه:

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ [الأحزاب:٣٧].

إلا أن الأمور وصلت في النهاية لطريق مسدود، وحال إصرار زيد دون استمرار المسيرة، فسمح الرسول ﷺ له بالطلاق..

وليأمر الله نبيه ﷺ بعدها بالزواج من زينب، في خطوة هامة للقضاء نهائيا على فكرة التبني في الإسلام.

نعم..لقد كان زواج الرسول ﷺ من زينب، زواجا من السماء حيث قال الله عز وجل:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ [الأحزاب:٣٧].

يا له من شرف لم تكن زينب لتحلم به يوما..

وكانت زينب تفخر على أمهات المؤمنين: «زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات».

ولقد آثار الزواج المنافقين في المدينة، وبدؤوا يطلقون الانتقادات اللاذعة؛ إذ كيف يتزوج الرسول ﷺ من مطلقة ابنه حتى وإن كان بالتبني؟! لينزل قول الله عز وجل:

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب:٤٠].

ولقد كانت قاعدة أخرى أراد الله أن يكسرها عند العرب، بعد أن نزل قول الله تعالى ليحرم التبني:

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب:٥].

ويعود زيد مرة أخرى إلى اسمه القديم ليصبح: «زيد بن حارثة»..بدلا من«زيد بن محمد».

كم كان الأمر صعبا على زيد بعد أن عاد اسمه إلى زيد بن حارثة، وبعد أن ظل سنوات يحمل اسم حبيبه محمد رسول الله ﷺ..

إلا أن ما سرى عن زيد، أن يذكر الله اسمه في كتابه ليتذكره ملايين المسلمين كلما فتحوا كتاب الله، وليصبح الصحابي الوحيد الذي يثاب عليه كل من يذكر اسمه..

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب:٣٧].

والآن.. أصبحت زينب زوجة الرسول ﷺ..

فما موقف زيد إذن ؟

لم تتوتر العلاقة بين زيد والرسول ﷺ، فلقد كان الحب والتفاهم بينهما أكبر مما نتصور.. وكان زيد يتفهم بالتأكيد موقف الرسول ﷺ وهدف الزواج الذي ارتبط بكلمات السماء، من أجل كسر قاعدة راسخة عند العرب، ما كان يمكن أن تكسر إلا بمثل هذا الموقف.

ويتزوج زيد بعدها من «أم أيمن»، وينجبا حبيبا آخر للرسول ﷺ..أسامة بن زيد.

وظل زيد الابن المحب، وظل الرسول ﷺ الأب الحنون، وظل الاثنان على طريقهما في نصرة دين الله ..

وفي العام الثامن من الهجرة كان الإسلام في أشد الحاجة لنصرة زيد.

فلقد وقعت حادثة قتل الحارث بن عمير الأزدي رسول رسول الله ﷺ إلى الغساسنة..

وكان لابد من الرد..

والحرب..

حتى ولو كان من سنحاربهم الروم.. أقوى جيش في العالم..

حتى وإن كان عددهم مائتي ألف أو يزيد يمتلكون معهم أحدث أسلحة العصر..

حتى لو كان الفرق بين وصول الخبر وبين الحرب يوم واحد.

لا شك أن المعركة غاية في الصعوبة..لكنها حتمية لا مفر منها..

وكانت معركة مؤتة..

ولكن من القادر أن يقود ثلاثة آلاف أمام مائتي ألف من جيش الروم..

إنه يحتاج إلى قائد محنك قادر على الحفاظ على استقرار الجيش ومعنوياته أمام هذه الأعداد الهائلة والأسلحة الرهيبة..

إنه يحتاج إلى قائد يجيد المناورات والتفكير السريع ويدرك أن الموت أقرب إليه من الحياة..

إنه يحتاج إلى زيد بن حارثة..

ولم يتردد زيد ذوالخمسة وخمسين عاما لحظة في قبول المهمة..

وقبل أن يهم الجيش بالرحيل، وقف الرسول ﷺ بعد صلاة الجمعة يودعه ويصدر تعليماته بالتسلسل القيادي أثناء المعركة..

«عليكم زيد بن حارثة..فإن أصيب زيد، فجعفر بن أبي طالب،...فإن أصيب جعفر، فعبد الله ابن رواحة»...

إلا أن اليهودي فنحص، لما سمع ما قاله الرسول ﷺ ذهب إليه قائلا:

يا أبا القاسم..عندنا في التوراة..أن النبى إذا قال قائد الجيش فلان فإن قتل ففلان فلابد أن يقتل الأول وإن سمى تسعة وتسعين اسما، أليس ذلك في دينكم يا أبا القاسم ؟

فسكت النبي ﷺ ولم يجب..

وبسرعة البرق ذهب فنحص إلى زيد بن حارثة وصاح فيه قائلا:

– يا زيد اذهب فقبل امرأتك وودع أولادك فلن تراهم بعد اليوم، فإنك إن رأيتهم بعد اليوم، فإن نبيك كذاب.

نظر إليه زيد نظرة حادة وبكل إصرار الدنيا قال لفنحص:

– والله أشهد أنه رسول الله، ولا أعود ولا أودع ولا أوصي، وأتوكل على الله.

لقد كان اختيار الرسول ﷺ صائبا إلى أقصى درجة، لقد أيقن زيد أنه سيموت فلم يتوان أو يتقهقر بل زاد إصرارا على إصرار وإيمانا على إيمان..

ويبدأ زيد المعركة ليجد المسلمون مشهدا رهيبا بحق.

ثلاثة آلاف أمام مائتي ألف..

قواعد الحساب والمنطق لا يمكن أن تقف أبدا في صف المسلمين، والنفس البشرية لا تملك إلا أن يداخلها الخوف ويساورها القلق و يناورها التردد.

وكان لابد من أن يجمع زيد بن حارثة قادة الجيش لبحث الأمر بسرعة..

واقترح أحدهم أن يتم إخبار الرسول ﷺ بالموقف كاملا، ويكون القرار قراره، إما أن ننتظر ليمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بالزحف فنطيع.

وكان للهيب الحماسة عند عبد الله بن رواحة، دور فعال في حسم الموقف وبدء المعركة دون تردد..

ليبدأ زيد بن حارثة في وضع خطة عبقرية.. يجعل ثلاثة آلاف مقاتل يواجهون طوفانا من جيش الروم لستة أيام متواصلة..

وكانت الفكرة..

التحصين في قرية مؤتة.. وهي قرية محاطة من الجانبين والخلف بسور، أما واجهتها فهي مفتوحة، وعرضها لا يكفي إلا لثلاثة آلاف جندي فقط، فعندما يهاجمهم الروم، لن يستطيعوا أن يهاجموا إلا بنفس عدد المسلمين.. ثلاثة آلاف.. وهنا تصبح المعركة متكافئة إلى حد بعيد..

أتعرفون ممن تعلم زيد هذه الخطة.. تعلمها من رجل أحبه كما لم يحب أحدا قط..

تعلمها من حبيبه محمد ﷺ عندما واجه نفس الموقف في غزوة أحد..

وتبدأ المعركة..وتنجح الفكرة.

ويقاتل المسلمون قتالا عنيفا تحت قيادة زيد يوما كاملا، يسقط فيه العشرات من جنود الروم، ويظهر فيه المسلمون تفوقا واضحا رغم الفارق الهائل في العدد والعدة..

وفي اليوم التالي.. استمر تفوق زيد ورجاله، واستمر القتال ليسقط المسلمون عشرات أخرى وأخرى من جيش الروم..

إلا أنه بجانبها.. سقط حب رسول الله ﷺ...

لقد أصيب زيد ليقع على الأرض متحاملا على نفسه وهو يحمل الراية بين يديه، وهو يصرخ بكل ما يملك من قوة، ليحمل عنه الراية خليفته جعفر بن أبي طالب..

ويأتي جعفر ليحمل الراية..

ومن بعيد.. كان الحبيب يحكي ما يرى والدموع تتساقط من عينيه.

الآن قتل زيد..

كانت السهام تطير من كل مكان صوب جسده القليل، وهو ثابت لا يتزحزح، يريد أن يثبت حتى الرمق الأخير..

لكن السهام كثرت، ولم يعد زيد قادرا على الاحتمال بعد..

ويسقط زيد..

نعم يا محمد.. الآن مات زيد شهيدا في سبيل الله..

الآن تصبح الأحداث ذكريات..

الآن يذهب زيد بعيدا بعيدا.. بعد أن كنت تراه كل يوم قريبا قريبا.

لقد بكى الرسول ﷺ زيدا حتى انتحب.. فسأله سعد بن عبادة: ما هذا يا رسول الله ؟.. فقال في تأثر:

«شوق الحبيب إلى حبيبه».

نعم.. شوق الحبيب إلى الأخ والمحدث والأنيس..
نعم كان الحزن كبيرا .. ولكن الأمل مازال باقيا..
فقريبا يلتقي الأحبة..
عند رب الأحبة.

* * *

دروس و تحليل

١ - قد يقصد الله الخير بإنسان، ويكون الطريق الوحيد لذلك هوإيذاؤه !! (اختطاف زيد بن حارثة كان سببا لأن يتربى في بيت النبوة ويصبح «حب رسول الله ﷺ»).

هناك الكثير من المواقف لا يستطيع الإنسان أن يفسرها إلا بعد انقضائها بفترة، وهذه الرؤية البعيدة هي التي تغير رؤيتنا للموقف من الشر إلى الخير أوالعكس.

وربما هذا هو تفسير الآية الكريمة: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢١٦].

وربما يدعوالمسلم ربه ويجتهد في الدعاء، فيفاجأ بأن إيذاء قد وقع به، ثم يكتشف بعدها، أن ما حدث كان سببا في إجابة دعائه.

وربما يصيب الله شخصا بإيذاء ليحميه من إيذاء أكبر، كإصابته بمرض يمنعه من ركوب طائرة ستتعرض لحادث.

هناك الكثير من المواقف والأحداث التى تحدث لنا ولا تخضع مطلقا لتخطيطنا ورغبتنا، بل ونعجز عن تفسيرها طبقا للمعطيات التى لدينا، ولكن علينا أن نعلم أنها تخضع في النهاية لنية الشخص نفسه، ومدى صدقه مع ربه، ومقدار رضا الله عنه.. فإذا تيقنت من ذلك.. فاعلم على وجه اليقين، أن الله سيريد بك الخير، مهما حدث لك من أحداث رأيتها شرا خالصا.

٢ - أخلاق الرسول ﷺ وتصرفاته كانت حقيقة صادقة، وليست بغرض إقناع الناس بدعوة الإسلام (الرسول ﷺ يعتق زيدا ويتبناه قبل أن تنزل عليه الرسالة).

كثيرا ما يصاب الملتزمون بانفصام في الشخصية، ولا أقصد هنا الانفصام بمعناه المرضى، ولكنى أقصد الانفصام الأخلاقى، فسلوك الملتزم في بيته مع أبيه وأمه وأبنائه وزوجته، يلاحظ فيه الفارق الشاسع بينه و بين سلوكه مع أصدقائه وإخوانه وبين من يدعوهم.

والذي يحدث أن الملتزم يحاول أن يظهر بالصورة المثالية أمام من لا يعرفه حتى يكون سببا في نجاح دعوته، وأنا لا أنتقد هذا.. فهوأمر محمود لا شك، ولكن ما أعيبه في هذه المسألة أمرين:

أولا: أن اجتهاد الملتزم بظهوره بصورة مثالية أمام إخوانه وأصدقائه ومن يدعوهم، الذي لا يوازيه في نفس الوقت اجتهاد في تحسين المعاملة مع الأهل والأولاد، يجعل الملتزم دائما في حالة عدم صدق مع نفسه، ربما يمكن وصفها في بعض الأحيان (بالتمثيل)، إلى أن يستطيع أن ينجح في عملية الاتحاد بين سلوكه في الخارج والداخل.

ثانيا: بعض الملتزمين يستخدم الخلق بصورة انتهازية تسيء لهم قبل أن تسيء للإسلام، فالبعض

يحسن المعاملة عندما يريد أن يكسب شخصا ما في صف دعوته، وعندما يجد أن من يدعوه ضعيف الاستجابة، تتحول معاملته له، و يكتشف المدعو ذلك بسهولة، ويقتنع أن هذا الشخص الذي كان يدعوه كانت أخلاقه نوعا من التمثيل للوصول إلى غرض معين.

إن الرسول ﷺ يعلمنا الصدق في الخلق، أن نتعامل مع الجميع بدافع الإنسانية لابدافع المصلحة (الشخصية أوالدعوية)، ولو كان هذا المدعو مسيحيا أو يهوديا أو وثنيا.

٣- فكرة الاختيار التى طرحها الرسول ﷺ كانت حلا بالغ الحكمة لمسألة شائكة، حقق بها العدل والرحمة، وهى نفس الفكرة التي يخشى منها دائما الآباء على الأبناء (الرسول ﷺ يعرض على زيد الاختيار بينه وبين أبيه).

نحن نخاف دائما ونخشى على أبنائنا من فكرة الاختيار، فالاختيار يعنى الحرية، ونحن ليس لدينا حرية، ليس على مستوى السلطة السياسية فقط، بل على مستوى الأسرة والمدرسة.. والمشكلة أننا مجتمع ليس لديه الجرأة أن يكون حرا، إذا ما تحدثنا عن الحرية بمفهومها الصحيح، وبوجهيها: تحقيق الرغبة، وتحمل مسئولية ، ودائما نختار الحل الأسهل، أن نختار لأبنائنا، بعد أن اختار لنا آباؤنا، نختار لهم القسم ونختار لهم الكلية أوالمعهد، وربما نختار لهم الزوجة أيضا.

وأنا لا ألوم الآباء على خوفهم على أبنائهم لأنهم بالفعل أكثر خبرة منهم، و لا ألومهم أيضا أنهم يرون أن في بعض الأحيان، يكون اختيار أبنائهم ليس مبنيا على أسس سليمة، ربما تزج بهم في مشكلات كبيرة.

أنا فقط أريد أن أوضح أن الحرية لا تأتي فجأة، فلن نستيقظ في الصباح لنقول لأبنائنا: افعلوا ما شئتم فأنتم أحرار. إن الحرية تربية لها قواعد، تتوازى مع تربية الأبناء منذ الصغر على الأخلاق وتحمل المسئولية. والحرية تحتاج إلى تدريب على المواقف الصغيرة والبسيطة بعد النصح والمشورة والنقاش ، وفي المواقف التى يشعر الابن فيها بخطأ اختياره، لن تحدث كارثة، ولكنه سيتعلم من خطئه، وعندما يكبر ويتعرض لمواقف مصيرية، يكون ساعتها قادرا على الاختيار الصحيح المبنى على قواعد منطقية سليمة، وليس المبني على رغبات و شهوات، وسيعرف بعدها.. أن عليه أن يتحمل مسئولية اختياره.

٤- الإسلام لا يعبأ بالشكل أواللون، إنما يعبأ فقط بجوهر الإنسان وأخلاقه ومواهبه وكفاحه وإضافته لمن حوله (كان زيد بن حارثة قصيرا شديد سواد البشرة وليس جميل الشكل، ولكنه كان يمتلك مواهب القيادة، وكان من أشد الناس قربا للرسول ﷺ).

هذه هى عظمة الإسلام وعدله، وسبب من أقوى الأسباب التى تجعله دينا عالميا لكل الناس، أنه لا يعنى بشكل الإنسان أو نسبه أو نفوذه، أنه يعنى فقط بالإنسان نفسه، بسلوكه وبقيمته وبمواهبه وقدراته وباجتهاده وكفاحه، إن رسالة الإسلام هى أن يفجر طاقات الإنسان نحوالإصلاح والبناء، وأن يجعل الجميع يعلون من شأن القيم التي تقدر الإنسان وتحترمه، وأن تحرك

الجميع لنفع الجميع، وأن يكون الفيصل بين الناس هوالجهد والأخلاق، لا أي اعتبارات أخرى.. ليس للإنسان أي ذنب فيها.

٥- زواج الرسول ﷺ من السيدة زينب، بعد أن طلقها زيد بن حارثة كان الغرض منه هوالقضاء نهائيا على فكرة التبني (الرسول ﷺ يتزوج من السيدة زينب بعد طلاقها من زيد بن حارثة).

تجنى البعض على الرسول ﷺ وادعوا أن الرسول ﷺ قد تزوج من السيدة زينب إعجابا بها، ونزلت الآيات لتقر بأن زواجه ﷺ من السيدة زينب إنما جاء بأمر من الله، بغرض القضاء نهائيا على فكرة التبنى، فلم يكن من تقاليد العرب أن يتزوج الأب من زوجة ابنه. وكان هذا دليلا دامغا على أن علاقة الأبوة بين الرسول ﷺ وزيد قد انتهت بإجراء فعلي واضح وصريح وأمام الجميع.

وعليه فلقد كان زواج الرسول ﷺ من السيدة زينب زواجا بغرض الدعوة، ككل زيجات الرسول ﷺ، فيما عدا زواجه من السيدة خديجة.

٦- تدين الزوجين ليس كافيا لنجاح الزواج (زواج زيد بن حارثة وزينب بنت جحش يفشل رغم تدين الاثنين).

يظن الكثير أن تدين الزوجين سيكون شرطا كافيا تماما لنجاح الحياة الزوجية، إلا أن الواقع يقول غير ذلك، والواقع يقول: إنه لابد أيضا من التكافؤ الاجتماعى والثقافي والمادي، حتى يسود التفاهم بين الزوجين وتسير الحياة بصورة سلسة خالية من المنغصات والمشكلات قدر الإمكان، فالتكافؤ بين الزوجين على مختلف المستويات، يحقق درجة أكبر من التفاهم والتعاون ووحدة الهدف، والاتفاق على وسائل تحقيقها، و تقارب الرؤى في حل المشكلات التي تواجههما.

إن عناصر الأسرة المسلمة القوية يعد التدين فيها شرطا ضروريا بكل تأكيد.. ولكنه ليس كافيا.

٧- إذا صدقت نواياك وصحت صلتك بالله، فلن يأخذ الله منك شيئا إلا ويعطيك خيرا منه (الله يعوض زيدا عن أبوة الرسول ﷺ بأن جعله الصحابي الوحيد الذي ذكر اسمه في القرآن.. تكريما له).

فكرة التعويض من الله، والثقة في الله وحسن الظن به بأنه لن يأخذ منك شيئا إلا ويعطيك خيرا مما أخذ منك، فكرة مريحة جدا للنفس، ووسيلة قوية لعدم السخط والتعرض للاكتئاب النفسى عند حدوث الأزمات والتعرض للشدائد، إنها فكرة تجعل الإنسان دائم الصلة بالله، والنظر إليه باستمرار على أنه لن يخذل عبده أبدا، بشرط.. أن تحسن صلتك بالله، فتحرص على الطاعة وتبتعد عن المعصية وتخلص النية ما استطعت، وعندها ثق تماما.. أن الله معك ولن يتركك.

٨- صدق زيد في حبه لرسول الله ﷺ، دفع تفكيره إلى أن يثبت أمام فنحص اليهودي صدْق نبوته ﷺ، لا أن يخاف من نبوءة القتل فيتوجه إلى أهله (زيد يؤكد لفنحص على نبوة الرسول ﷺ ولا يتوجه إلى أهله ليودعهم).

كان موقف زيد بن حارثة مدهشا ومستفزا لفنحص، الذي كان يقصد إرهاب زيد ودفعه للتراجع، بعد أن أقنعه بمقتله، ولكن صدق حب زيد لرسول الله ﷺ، وجه تفكيره ومشاعره إلى اتجاه آخر تماما لم يتخيله فنحص، هو أن يؤكد نبوة الرسول ﷺ أمام فنحص، وهو يعلم أن تأكيد نبوته لا يعني إلا استشهاده في المعركة، ثم استشهاد اثنين من خيرة الصحابة بعده.

إنه حب الرسول ﷺ الذي نحتاجه، الحب الذي يملك على المسلم مشاعره، فيجعله يتحمل المشقة في سبيل إرضائه، ويتحمل الأذى في سبيله، وإذا كان ميدان الجهاد ليس هو المجال الذي نثبت فيه هذا الحب الآن، فهناك ميدان السلوك والأخلاق والصراع مع الحياة وشهواتها ونصرة المظلوم والصمود أمام الإغراءات التي تسقط مبادئنا وقيمنا من أجل المادة والشهوة.

إننا من الممكن أن نثبت حبنا للرسول ﷺ كل يوم أمام الناس وأمام أنفسنا دون مظاهرات أو هتافات، ودون أن ننتظر أحدا يسيء إلى الرسول برسوم كاريكاتيرية.. فقط إذا كنا صادقين في حبنا له ﷺ.

* * *